الغزالي وزعماء الفلاسفة

- ٢ -

٥ — دراسة بعض المسائل

نبحث الآن في المسائل الثلاث التي أشرنا اليها في المقال السابق

١ — مسألة المعرفة

مسألة المعرفة هي الأساس الذي يرجع اليه الخلاف بين الغزالى والفلاسفة . فقد كان الفلاسفة يقولون ان المعرفة لا تتم بطريق التجربة ، بل تتم باشراق الصور من العقل الفعال على العقل الانساني . فالعقل يكون في أول امره عقلاً بالقوة ، ثم يصير عقلا بالفعل ، وذلك بما يصل اليه من الصور التي تؤديها اليه الحواس الظاهرة والباطنة . ولكن هذا الانتقال من القوة الى الفعل لا يتم الا بتأثير العقل الفعال . وتتمايز العقول الانسانية بعضها من بعض بمقدار استعدادها للاتصال بالعقل الفعال الذي تتلقى عنه المعرفة . وفي ضوء هذا العقل يستطيع عقلنا ان يدرك الصور الكلية ، وبه يصير الاحساس معرفة .

فأنت ترى ان الفلاسفة قد بنوا المعرفة على العقل . لأن العقل هو الذي يجرد الصور الحسية من اللواحق المشخصة ، وينتزع من الصور المتخيلة صوراً كلية . ولكن الصور المنتزعة من الاحساس والخيال لا تصبح صوراً عقلية الا بتأثير العقل الفعال او كما يقول ابن سينا بنور يفيض عليها من واهب الصور . نعم ان طريقة اكتساب المعرفة عند ابن سينا ترجع الى النظر والقياس اولاً ، ثم الى الحدس ثانياً . ولكن هذا الحدس الذي يتكلم عنه ، انما هو حدس عقلي شبيه بالحدس الذي اشار اليه ديكارت وغيره من الفلاسفة العقليين . ومعيار صحة المعاني عنده هو وضوحها بذاتها وخلوها من التناقض .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اما مذهب الغزالي في المعرفة فيختلف عن مذهب الفلاسفة في مبادئه وغاياته لانه قد بنى المعرفة على التجربة والكشف الباطني . واليقين عنده ثلاث مراتب : اولها ايمان العامة المستند الى الخبر . فهم يصدقون ما يخبرهم به اهل الثقة ، كأن يقال لهم ان فلاناً في الدار ، وثانيها معرفة العلماء التي يصلون اليها بالاستنباط ، فهم قد سمعوه يتكلم فاستنبطوا انه في الدار . غير انه يوجد فوق ذلك مرتبة ثالثة هي يقين العارفين الذين يشهدون الحق دون حجاب . وهم قد دخلوا الدار ورأوا الرجل بأعينهم . والعلوم انما تثبت في القلب بطريق الاستدلال والتعلم ، أو بطريق الوحي والالهام . والغزالي يفضل العلم الذي يحصل في القلب عن طريق الالهام على العلم الذي يحصل فيه عن طريق التعلم . ومن أجمل ما في كتاب الأحياء من التشبيهات تشبيه القلب بحوض محفور في الأرض . فاما ان يساق اليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ، واما أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب الى ان يقرب من مستقر الماء الصافي فيتفجر الماء من أسفل الحوض . قال الغزالي : « والقلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء . وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار . وقد يمكن ان تساق العلوم الى القلب بواسطة انهار الحواس والاعتبار والمشاهدات حتى يمتلئ علماً ، ويمكن ان تسدّ هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ، ويعمد الى عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنه حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله . فان قلت فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه فاعلم ان هذا من عجائب اسرار القلب ، ولا يسمح بذكره في علم المعاملة بل القدر الذي يمكن ذكره ان حقائق الأشياء مستورة في اللوح المحفوظ ، بل في قلوب الملائكة المقربين . فكما ان المهندس يصور أبنية الدار في بياض ثم يخرجها الى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله الى آخره في اللوح المحفوظ ، ثم اخرجه الى الوجود على وفق تلك النسخة . والعالم الذي خرج الى الوجود بصورته تتأدى منه صورة اخرى الى الحس والخيال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فان من ينظر الى السماء والأرض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر اليهما . ولو انعدمت السماء والأرض وبقي هو نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر اليهما ، ثم يتأدى من خياله أثر الى القلب . . . والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجاً من خيال الانسان وقلبه ، والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ . فكأن للعالم أربع درجات في الوجود : وجود في اللوح المحفوظ ، وهو سابق على وجوده الجسماني ، ويتبعه وجوده الحقيقي ، ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي ، اعني وجود صورته في الخيال ، ويتبع وجوده الخيالي وجوده العقلي اعني وجود صورته في القلب[1] » .

وهذا القول يدل على ان المعرفة تحصل في النفس بطريقين مختلفين الأول هو طريق الحواس والاعتبار والمشاهدة . وهو طريق التجربة الخارجية او طريق المعرفة غير المباشرة . والثاني هو طريق القلب وتطهيره ورفع الحجب عنه . وهو طريق التجربة الداخلية المباشرة . وكلا الطريقين يؤدي الى نفس النتائج ، لأن صورة العالم الخارجي محفوظة في النفس . فاما ان تتوجه النفس الى العالم الخارجي فتتأدى اليها المعرفة عن طريق الحواس ، واما ان تتوجه الى ذاتها وتدرك صورة العالم المحفوظة في داخلها ، فتتفجر منها المعرفة . والمعرفة التي تتفجر من داخل القلب اصفى وأدوم ، لا بل هي كما يقول الغزالي اكثر وأغزر . وهذا الرأي شبيه كما ترى برأي (ليبنيز) الذي قال : « يظهر لنا لأول وهلة ان جميع تصوراتنا تأتي من العالم الخارجي بواسطة الحواس وترتسم في صفحات النفس الفارغة . ولكننا اذا تعمقنا في التأمل أدركنا ان كل شيء حتى الادراكات والانفعالات انما يأتينا من داخلنا بعفوية تامة وما نظنه خارجياً او آتياً عن طريق الحواس انما هو الا تبدل في لحوالنا الداخلية[2] » .

---

(١) الغزالي ، احياء علوم الدين الجزء الثالث ، ص ١٧ ـ ١٨ ، المطبعة العثمانية للمصرية ـ القاهرة ١٩٣٣ .

(٢) كتاب الالهيات « Théodicée » ، ٢٩٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن هذه الادراكات والانفعالات الداخلية هي كما يقول (ليبنيز) صور ومعارف مطابقة للحقائق الخارجية ٠ وهي لا تنشأ عن تأثير متبادل بين العقل والطبيعة ، بل تنشأ عن توافق قديم بينهما ٠ ومعنى ذلك ان تتابع الادراكات في الجوهر العاقل مطابق لتتابع حوادث الكون وجرياتها ٠ فهناك اذن عالمان عالم العقل وعالم الطبيعة ٠ وكل منهما مطابق للآخر في تتابع صوره وجريان حوادثه ٠ وهذا شبيه بقول الغزالي ان صور العالم الحقيقي مطابقة للصور المرسومة في اللوح المحفوظ وموافقة للصور الحاصلة في القلب والخيال وسواء أتوجهت النفس الى العالم الحقيقي أم غضت البصر عنه وتوجهت الى داخلها ، فان المعرفة التي تحصل لها واحدة ٠

وحقيقة القول ان القلب في نظر الغزالي مستعد لأن تتجلى فيه حقائق العلوم مباشرة وذلك بالتعرض للنفحات الالهية ٠ قال الغزالي : « ان العلوم ليست ضرورية وانما تحصل في القلب في بعض الأحوال ، فتارة تهجم على القلب كأنه القي فيه من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم فالذي يحصل بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى الهاماً ، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً »[1] ٠

يتضح من هذا القول ان الغزالي يسمي الطريق الأول الذي نحصل به على المعرفة طريق الاعتبار والاستبصار ، ويسمي الطريق الثاني بطريق الالهام ٠ وفوق طريق الالهام درجة من المعرفة يعرف معها المدرك كيف حصل له ذلك الالهام ومن أين حصل وتسمى هذه المعرفة وحياً ؛ وهي مما يختص به الأنبياء ، اما الالهام فيختص به الأولياء ٠ والعلم المكتسب الحاصل بطريق الاعتبار والاستبصار والاستدلال انما يختص به العلماء ٠

ويرى الغزالي ان الفلاسفة اقتصروا في أصل المعرفة على طريق الاستدلال والتعلم وأهملوا العلم الحاصل في النفس عن طريق الوحي والالهام ٠ انهم يفنون

(١) الاحياء ، ص ١٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

انفسهم في تجريد المعاني الكلية من الكيفيات الجزئية ، مع ان المعاني الكلية المجردة أقل من أن تستنفد كل ما نشعر به في نفوسنا . واحباب الله يبلغون من الرياضة درجة يتلقون بها علماً لدنياً لا يطلع عليه العلماء الا بالاستنباط العقلي ، ولا يرتقي الى ذلك المقام الرفيع الا قليل من الناس .

ما هي قيمة هذه المعرفة التي تحصل لنا بأحد هذين الطريقين وما هي حدودها ؟

لقد ذكرنا الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال صفة المعرفة التي يريد الحصول عليها ، فقال ان مطلوبه هو العلم بحقائق الأمور ، لذلك ظهر له « ان العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكاً وانكاراً »(١)

وفي سبيل الحصول على هذه المعرفة اليقينية شك الغزالي في العلم الموروث ، ثم شك في الحسيات ، ثم شك في الأوليات العقلية ، ولم تعد نفسه الى الصحة والاعتدال الا بنور قذفه الله في الصدر . وهذا النور كما يقول هو مفتاح اكثر العلوم . وهذا يدل على ان الغزالي لم يكن ريبياً ، بل كان شكه شكاً فلسفياً ، وهو واسطة للوصول الى اليقين . فقد كانت الأوليات العقلية موثوقاً بها في الأصل ، ثم لما عادت النفس الى الصحة والاعتدال رجعت الأوليات موثوقاً بها أيضاً على أمن ويقين . ولولا النور الالهي الذي قذف في الصدر لم ينقذ الغزالي نفسه من غياهب الشك الذي غرق فيه . ولكن هذا الجود الالهي لم يكن الا مفتاحاً لليقين ، ولولا استعداد العقل لقبوله لما بدد نوره ظلمات الشك . فالعقل قادر اذن على الوصول الى الحقيقة ، واذا وقع في الشك استطاع ان ينقذ نفسه منه بالتعرض للالطاف الالهية . على ان الحقائق التي يتوصل اليها العقل بنفسه

(١) المنقذ من الضلال . طبعة دمشق (مكتب النفر العربي)، الطبعة الثانية ٦٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا تشمل كل شيء ، وهي تختلف بحسب الطريق الذي نسلكه في الوصول الى المعرفة . فاذا كان الطريق الذي سلكناه هو طريق الاستدلال كانت معرفتنا مقصورة على امور التجربة وما يتصل بها ، واذا كان طريق معرفتنا هو الوحي والالهام امكننا الوصول الى معرفة الأمور الالهية . وهذا النوع الأخير من المعرفة هو التعليم الذي جاءنا به الأنبياء . فقد علمونا أشياء كثيرة منها ماهو داخل في نطاق الاستدلال العقلي ، ومنها ماهو خارج عن نطاقه . ولولاهم لما أدركنا حقيقة الأمور الالهية .

فالغزالي قد حدد اذن نطاق الاستدلال العقلي المجرد عن الوحي ، وجعله قاصراً على ادراك أمور التجربة . وجعل الأمور الالهية خارجة عن نطاقه . وهو في ذلك قريب من ابن خلدون .

أما الفلاسفة فقد آمنوا بسلطان العقل ، وجعلوه قادراً على حل جميع المشكلات . وعدم وصول التعليم اليهم عن طريق الأنبياء لايمنعهم من الوصول الى الحقائق الأبدية . أما الغزالي فيرى ان محاولة معرفة الأمور الالهية بطريق العقل المجرد عن الوحي والالهام فضول وطمع في غير مطمع ، لأن هذه الأمور كما صرح غير مرة ، ليست مما تتسع له القوى البشرية . ولا تنال بنظر العقل ، بل تنال بطريقة أخرى للاطلاع ، هي طريقة الكشف الباطني والشعور الوجداني ، وقد اقتبس الغزالي هذا النوع من المعرفة الوجدانية من الطريقة الصوفية فجعل الكشف الباطني اساس اليقين الديني ومفتاح العلوم .

ولا يشترط في الحق عنده ان يكون واضحاً بنفسه مؤيداً بالبرهان العقلي فحسب ، بل يجب ايضاً ان يكون موافقاً للكتاب والسنة . وهكذا تنقسم المعرفة عند الغزالي الى قسمين : معرفة حسية ومعرفة دينية . فالعقل والتجربة هما اساس المعرفة الحسية ، اما المعرفة الدينية فترتكز على الكشف الباطني . وهذا يوضح لنا السبب في حملة الغزالي على الفلاسفة ، واظهاره تناقض مذهبهم في ايضاح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأمور الالهية ، واستنباطهم اياها على طريقة العلماء . فهم لم يكتفوا بالخبر كما نقله اليهم الأنبياء ، ولا ارتقوا في المعارف اللدنية الى المشاهدة والمكاشفة ، ولكنهم ارادوا ان يزنوا حقيقة الإله والنفس بميزان العقل ، وان يستنبطوا بهذا الميزان احكاماً لا يمكن الوصول اليها الا عن طريق الوحي والالهام . فوقعوا فيما وقعوا فيه من التوهم والضلال .

٢ — مسألة العالم : الزمان والمكان

والمسألة الثانية التي نريد ذكرها على سبيل المثال هي مسألة العالم والزمان والمكان . وهي مسألة كلية تشتمل على عدة مسائل ، كقولنا هل العالم ازلي أم حادث ، وهل هو أبدي ام فان . واذا كان ازلياً هل يحتاج الى صانع ، وما البرهان على احتياجه الى صانع واحد . لماذا يستحيل على العقل ان يتصور إلهين قديمين .

فالفلاسفة يقولون : إن العالم كرة متناهية في الامتداد ، ولكنهم يقولون في الوقت نفسه إنها قديمة لا نهاية لها في الزمان ، وإنها بالرغم من قدمها محتاجة الى صانع . ولا مجال الآن لتفصيل القول في هذا كله ، وانما نريد ان نبين ان الغزالي لم يبطل أدلة الفلاسفة على قدم العالم وأزليته ، الا ليمهد لنا نطاق الاستدلال العقلي المجرد عن الوحي ، ويبين عجزه عن ادراك مسائل ما بعد الطبيعة . فهو قد اورد أدلة الفلاسفة على قدم العالم ثم بين تناقضها ، وأورد بالاضافة الى ذلك ادلة مختلفة على حدوث العالم ، وجعل مسألة عدم تناهي الزمان ، مماثلة لمسألة عدم تناهي المكان . فاذا كنا لا نستطيع ان نتصور للزمان مبدأ أو نهاية ، فكذلك لا نقدر ان نتصور للمكان حدوداً . ولو قيل ان للمكان يتعلق بالحس الظاهر ، وان الزمان يتعلق بالحس الباطن لما تغير من المسألة شيء ، لأننا مع هذا لا نخرج من المحسوس . فالبعد المكاني تابع للجسم والبعد الزماني تابع للحركة . وكما اننا نستطيع ان نقيم الدليل على تناهي أقطار الجسم ، فكذلك يمكننا ان نبرهن على تناهي الحركة من طرفيها . وهذا كله يدل على ان الزمان والمكان انما هما عبارة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن علاقات بين تصوراتنا ، فهما اذن نسبيان . وهذا يقرب رأي الغزالي من رأي (كانت) الذي يقول ان الزمان والمكان هما صورتان سابقتان للتجربة نستعين بهما على ادراك العالم الخارجي . والفرق بين (الغزالي) و (كانت) في ذلك هو ان الغزالي يقول ان الزمان والمكان هما علاقات بين التصورات ، تخلق بخلقها أو بالأحرى يخلقها الله بين الصور الذهنية في عقولنا ، اما (كانت) فيقول ان مقولتي الزمان والمكان هما صورتان من خلق العقل يستخرجهما من داخله وينشرهما ليرتب فيهما ظواهر الطبيعة ويؤلف منها سلاسل منظمة . ولكن (كانت) لم لم يوضح لنا كيف تولدت هذه المقولات من العقل ، فهل هي مثل مخلدة ، ام هي اشراق إلهي . انك لاتجد لهذه المسألة في فلسفة (كانت) جواباً شافياً أما الغزالي فقد تجنب الشبهة بارجاع الزمان والمكان الى تصورات ذهنية خلقها الله في عقولنا .

وفي تقرير الغزالي لحجة الفلاسفة ، على قدم العالم ، وابطالها دليل آخر على مشابهته (لكانت) . اننا اذا قلنا مع الغزالي ان العالم حادث ورد علينا اعتراض الفلاسفة وهو قولهم يستحيل صدور حادث من قديم . لأن الشيء لا يمكن ان ينتج الا مثله . واذا قلنا مع الفلاسفة إن العالم قديم ورد علينا اعتراض الغزالي ، وهو قوله ان في العالم حوادث ، ولها أسباب ، ولا يمكن ان تستند الحوادث الى الحوادث الى غير نهاية ، ولو كان ذلك ممكناً لاستغنينا عن الاعتراف بالصانع واذا كانت الحوادث لها طرف ينتهي اليه تسلسلها ، فيكون ذلك الطرف هو القديم ، فلا بد اذن على أصل الفلاسفة انفسهم من تجويز صدور حادث من قديم . وهناك أدلة أخرى لكل من هذين الرأيين المتضادين تتفرع بعضها من بعض ، فتشتبك وتتعقد وتزيد الأمر اشتباهاً . وهي كلها تدل على عجز العقل عن ادراك هذه المسائل ، لأنها من طور فوق طوره . وتذكرنا بمتناقضات العقل المحض التي جاء بها كانت لاثبات عجز العقل عن ادراك كنه مسائل ما بعد الطبيعة . فمن متناقضات العقل المحض قضية تناهي العالم في الزمان والمكان ونقيضها . فالأدلة التي جاء بها كانت للبرهان على هذه القضية ونقيضها لا تختلف كثيراً عن الأدلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التي جاء بهـا الغزالي ، على لسان الفلاسفة ، لاثبات قضيتهم من جهة ، ولاظهار تناقضها من جهة أخرى . ومن تعمق في درس تهافت الغزالي وتهافت ابن رشد استطاع ان يجد فيهما بذوراً لمتناقضات (كانت) الاخرى كمتناقضة تركيب الجوهر من أجزاء بسيطة وعدم تركيبه ، ومتناقضة السببية والحرية . ومتناقضة وجود الموجود الواجب وعدم وجوده ، حتى ان الغزالي نفسه يقول عند الكلام عن أبدية العالم ، ان العالم يجوز أن يبقى ، وان يفنى ، ولا ترجيح عنده لأحد هذين النقيضين على الآخر إلا بالرجوع الى الشرع لا الى العقل .

٣ — مسألة السببية

والمسألة الأخيرة التي نريد ذكرها على سبيل المثال هي مسألة السببية . فقد كان الفلاسفة يفرقون بين فعل الله وفعل العقول المريدة وفعل النفس والطبيعة والاتفاق . ولكن الغزالي يرى انه لا يوجد الا فعل واحد وهو فعل الموجود المريد . وهو ينكر فعل الطبيعة انكاراً تاماً . لأننا لا نستطيع ان نرد هذا الفعل الى مجرد علاقة زمانية بين شيئين . ولا شك اننا نجد مثيلاً لهذه الآراء عند المتكلمين السابقين . ولكن جرأة الغزالي على انكار الضرورة العقلية لقانون السببية ، قد فاقت كل ما ألفناه حتى الآن ، من الاقدام على التهديم . ومن السهل علينا ان نلخص رأي الغزالي في مسألة السببية بايراد العبارة الآتية ؛ قال الغزالي « ان الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا . بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا ، ولا اثبات احدهما متضمن لاثبات الآخر ولا نفيه متضمن لنفي الآخر . فليس من ضرورة وجود احدهما وجودُ الآخر ، ولا من ضرورة عدم احدهما عدمُ الآخر ، مثل الري والشرب ، والشبع والأكل ، والشفاء وشرب الدواء وهلم جرا ، الى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف ، وان اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه خلقها على التساوق ، لا لكونها ضرورية في نفسها » . وقال ايضاً :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وليس لهم دليل إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده ، ولا تدل على الحصول به وأنه لا علة سواه » . فنحن نرى ظاهرة معينة تعقبُ ظاهرة أخرى معينة ، فنسمي الأولى معلولاً والثانية علة . اما كيف تحدث العلة معلولها فهذا سر لا يطلعنا عليه الحس ، ولا ندركه بالعقل . ومجرد اعتيادنا مشاهدة التعاقب بين ظاهرتين لا يسمح لنا بأن نقول إن الظاهرة الأولى علة الظاهرة الثانية . فالغزالي ينكر اذن الضرورة العقلية في مبدأ السببية ، ويعلن بجرأة اننا لا نعرف فعل الأشياء الطبيعية بعضها في بعض وليس في الفلاسفة القدماء والمحدثين من يشبهه في جرأته هذه الا (داودهيوم) الذي انكر أيضاً ارتباط العلة بالمعلول ارتباطاً ضرورياً . فقال ان كل ما يراه الانسان بحواسه هو ظاهرتان متعاقبتان . وليس هذا التتابع دليلاً على السببية ، ولا يمكن ان يُعلم منه ان الحادثة الأولى علة الحادثة الثانية . والعادة وحدها كما يقول (هيوم) هي التي أوحت الى الانسان بهذه النتيجة ، اذ توهم انه ما دامت هاتان الحادثتان قد ارتبطتا في الماضي ، فلا بد ان ترتبطا لذلك في التجارب المقبلة ، واذن ففكرة السببية ذاتية محضة ، وهي خدعة من الخيال ليس لها وجود الا في العقل الذي يدركها . واذا قال قائل إن رفع الأسباب مبطل للعلم ، وإن ذلك يؤدي الى قلب الكتاب حيواناً والعصا ثعباناً قال الغزالي ان الله تعالى خلق لنا علماً بأنه لم يفعل هذه الممكنات ، وهو لم يقل ان هذه الأمور واجبة ، بل هي ممكنة يجوز ان تقع ويجوز ان لا تقع . واستمرار العادة بها مرة بعد أخرى يُرسخ في أذهاننا جريانها وفق العادة الماضية . وفي هذا القول ايضاح كاف للأسباب التي حملت الغزالي على انكار السببية . فهو قد أنكر السببية ليترك باب المعجزات مفتوحاً . فعلق الأسباب والأفعال كلها بارادة الله . فالشمس عنده ليست علة الضوء ، والدواء ليس علة الشفاء ، والنار ليست علة الاحتراق ، بل الفاعل الحقيقي هو الله . فالله قد خلق هذه الظواهر ، بعضها بعد بعض على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التساوق ، لا لكونها ضرورية في نفسها ، ولكن لغاية نجهل حكمتها . وفعل الله لا ينقطع ، بل هو يتجدد في كل وقت ، فيربط اذا شاء ظاهرة بظاهرة ، وحركة بحركة ويقطع اذا شاء هذا الارتباط . وهذا قريب من رأي (ديكارت) الذي قال ان الله يخلق العالم في كل آن . ومن رأي (مالبرانش) الذي زعم ان الله هو المنفذ المباشر لكل فعل من افعال الانسان ، لا بل هو العلة الحقيقية في ارتباط الظواهر بعضها ببعض . وبديهي ان السبب في تعليق الأسباب والمسببات بارادة الله ، انما يرجع الى العقيدة الدينية . ولولا حرص الغزالي على اعطاء الله جميع الصفات التي تعلمها من الشرع لما انكر الضرورة العقلية في قانون السببية . فهو قد أرجع هذا القانون الى الاعتياد تخلصاً من انكار المعجزات ، وجعل الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة ناظرها . فالله تعالى وحده هو السبب الحقيقي لكل شيء ، والسببية الحقيقية ترجع الى علاقة ارادية بينه وبين العالم . اما ارتباط الأسباب والمسببات الطبيعية بعضها ببعض ، فلا قيمة له بنفسه ، ولا معنى له الا اذا ارتكز على ارادة الله .

٦ — النتيجة

هذه أمثلة سريعة تبين لنا موقف الغزالي من فلسفة زمانه . فقد كان الفلاسفة يعتقدون ان العقل قادر على الاحاطة بكل شيء ، فبين لهم الغزالي ان نطاق العقل مقصور على ادراك أمور التجربة . وكانوا يعتقدون ان العالم قديم فألزمهم الغزالي بأن العالم حادث ، وكانوا يقولون بارتباط الأسباب والمسببات ارتباطاً ضرورياً فأثبت لهم الغزالي ان السبب الحقيقي هو الله ، وان الله هو المريد بارادة قديمة وانه لا فاعل سواه . وما ذهب الغزالي الى ذلك كله الا ليحافظ على العقائد ويذب عن حياض الدين . فهاجم الفلاسفة مهاجمة عنيفة ، واهتدى في أثناء ذلك الى آراء جديدة لا نجدها الا عند (ديكارت) و (مالبرانش) و (كانت) و (هيوم) من فلاسفة العصور الحديثة . ففلسفة الغزالي هي بهذا المعنى فلسفة دينية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أو فلسفة مثالية شخصية اما فلسفة المشائين فهي فلسفة عقلية . والغزالي قريب من ابن خلدون في قوة الابتكار ، وهو أكثر فلاسفة العرب تحرراً من سيطرة أرسطو ، ولكنه لم يتحرر من سيطرة أرسطو الا ليستسلم لدواعي القلب ، ويلجأ الى أحضان الدين . وقد كان لرده على الفلاسفة أثر عميق في مصير الفلسفة في الشرق . فلم يقم أحد من تلاميذ ابن سينا للرد عليه فتداعى بناء الفلسفة المشائية وتفرقت عناصرها وتلقفها رجال الدين وصبغوها بألوان العقائد ، أما في الأندلس فلم يكن حظ الغزالي في أول أمره أحسن من حظ الفلاسفة ، فأعرض الناس عن كتبه ، واحرقوها كما أحرقوا كتب الفلسفة . قال ابن طملوس :

« ولما امتدت الأيام وصلت الى هذه الجزيرة كتب ابي حامد الغزالي ، فقرعت اسماع الناس بأشياء لم يألفوها ولا عرفوها ، وكلام خرج به عن معتادهم من مسائل الصوفية وغيرهم من سائر الطوائف الذين لم يعتد أهل الأندلس مناظرتهم ولا محاورتهم ، فبعدت عن قبوله أذهانهم ، ونفرت عنه نفوسهم ، وقالوا ان كان في الدنيا كفر وزندقة ، فهذا الذي في كتب الغزالي هو الكفر والزندقة ، وأجمعوا على ذلك واجتمعوا للأمير إذ ذاك ، وحملوه على أن يأمر بحرق هذه الكتب المنسوبة الى الضلال ، بزعمهم ، وعزموا عليه في ذلك حتى أجابهم الى ما سألوه منه ، فأحرقت كتب الغزالي وهم لا يعرفون ما فيها ، وخاطب الأمير اذ ذاك جميع أهل مملكته بأمرهم بحرقها ، ويعلمهم أنه هو الذي أدى اليه نظر العلماء ، وقرئت مخاطبته على المنابر ، وشنع الأمر بذلك تشنيعاً عظيماً . وامتحن من كان عنده منها كتاب ، وخاف كل انسان على نفسه أن يرمى بأنه قرأ منها كتاباً أو اقتناه ، وكان في ذلك من الوعيد ما لا مزيد عليه ... ثم لم تكن تمتد الأيام الا قليلاً حتى جاء الله بالامام المهدي رضي الله عنه ، فبان به للناس ما كانوا قد تحيروا فيه ، وندب الناس الى قراءة كتب الغزالي رحمه الله ، وعرف من مذهبه انه يوافقه ، فأخذ الناس في قراءتها واعجبوا بها ، وبما رأوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيها من جودة النظام والترتيب الذي لم يروا مثله قط في تأليف ؛ ولم يبق في هذه الجهات من لم يغلب عليه حب كتب الغزالي الا من غلب عليه افراط الجمود ، من غلاة المقلدين ، فصارت قراءتها شرعاً ودينًا بعد ان كانت كفراً وزندقة[1]» .

فالناس في الأندلس قد عاملوا الغزالي بما عامل به الفلاسفة في الشرق فكفروه في أول أمرهم كما كفر الفلاسفة ، وبدَّعوه كما بدَّعهم . ثم لما حمى كتبه أمير راجت بضاعتها وانتشرت . ولم يوفق ابن رشد رغم حملته على الغزالي في كتاب تهافت التهافت الى منع الفلسفة من الانقراض ، فقد اتهم الغزالي بانه انما كفر الفلاسفة ارضاء للعامة ، وسبقه ابن الطفيل الى ذلك فقال ان الغزالي يربط في موضع ويحلّ في آخر ، ويكفر بأشياء ثم ينتحلها . ومهما يكن من أمر فان العامة قد أحرقوا كتب ابن رشد كما أحرقوا كتب الغزالي ، واعراضهم عن كتب الغزالي في أول الأمر ثم استحسانهم اياها يدل على ما جرى اليه أمرهم ، في كل قديم وحديث . فهم ينكرون أولاً ما يألفونه ويستحسنونه آخراً . ولو لم يخب مصباح الحضارة العربية تحت تأثير العناصر الأجنبية التي سيطرت على الاسلام لأدى تهالك الناس في استحسان آراء الغزالي الى ظهور مفكر جديد بعده ، لا يكتفي برد اعتراضاته على مذهب أرسطو كما فعل ابن رشد ، بل يرجع الى أصول مذهبه الصوفي وينبذها ، ويستبدل بها غيرها . إن قانون التضاد الذي اشرنا اليه سابقًا لا يعمل عمله في تطور الأفكار الا اذا كانت الأفكار حرة طليقة . فاذا انطلقت الأفكار في فضاء الحرية دعا بعضها بعضاً . ولكنها اذا حبست في طبقات من حجب التقليد والتعصب الأعمى نضب ماؤها وانطفأ نورها .

جميل صليبا

---

(١) ابن طملوس ، كتاب المدخل لصناعة المنطق ، مجريط ، ١٩٠٦ ، ص ١١ ـ ١٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net